Coptology

Ϩⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

رسالة عيد الميلاد ٢٠٢١

ابن الله الكلمة الذي جمع في تجسده البداية والنهاية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢١

يمثل اتحاد اللاهوت بالناسوت في بيت لحم نقطة التقاء الله بالبشرية.

وعندما رأى أينشتاين أن المادة لا تفنى بل تتحول إلى أجسامٍ معتِمَة، وأن النهاية هي ذاتها نقطة البداية، فقد قدَّم لنا نموذجًا عقليًّا عن الثورة الفكرية التي جاء بها تجسُّد ابن الله، في حين حوَّلت الثقافة المعاصرة -بشكلٍ عام- الاحتفال بهذا الحدث، بدلًا من احتفالٍ بالظهور الإلهي إلى مجرد احتفال بالطعام والشراب، وبشجرة عيد الميلاد ونماذج بلاستيكية للرعاة ويوسف النجار والقديسة مريم. وغير خفيٍّ ما في هذا الشكل من تزويرٍ للمعاني الإلهية لتلك الحقيقة الأبدية، تلك التي تلزمنا بأن نراجع أنفسنا فيما وعيناه مما قدَّمه ابن الله من رسالةٍ حقيقيةٍ لا شأن لها بعلاقاتٍ اجتماعية بائدة، بل بعلاقات أبدية لا تراجُعَ عنها؛ علاقة الله بالإنسان في يسوع المسيح.

لقد أنتج إخلاءُ الذات الذي أشار إليه القديس بولس في فيلبي ٢: ٦ — ٨ إنجيلًا قلب موازين البشر، فلم يعُد الله هو ذلك القويُ المتكبر، بل الذي يقبل الفقر، بل وألم الموت على الصليب.

"صار الله إنسانًا". عبارةٌ على بساطتها أرعبت الإنسان. فقد كان عدم الاعتراف بها أو قبولها مسألةَ حياةٍ أو موت بالنسبة لشهداء العصر الأول. وها هي عجلة التاريخ تدور، فتُرينا شبكة المعلومات في التاريخ المعاصر شهداء ليبيا، بل بالحري شهداء سمالوط الذين قبلوا الموت من أجل يسوع، وهو موقفٌ خطير يجعلنا لا نتردد في القول بأن تجسد ابن الله هو دعوةٌ من الله للإنسان بأن يراجِعَ كل ما يقوله عن الله والإنسان، لأن هذا العمل الإلهي العظيم كشف لنا ليس فقط عن رفض مفاهيم القهر والاستعلاء، بل عمل على تغييرها بالحياة التي عاشها يسوع، يسوعُ الذي لم يَقُل لأيٍّ من تلاميذه

"اجلس واكتب"، بل قال "اتبعني"، وهي دعوةٌ لكي يدرك الإنسان حقيقة الإيمان بأنه اتباعٌ لمعلم الحق، الذي جاء لكي يكون الحق، لا في كتابٍ يُقرأ بل ليكون في اللحم والدم، يختبره الشخص في عمق إنسانيته، لا في مقولاتٍ فكرية فلسفية، استعلانًا لشخص يسوع وشركتنا فيه.

نقولُ استعلانًا لشخص يسوع وشركتنا فيه، لا للبحث في ماهية الشركة وجوهرها، لأن البحث في جوهر الشركة يطوح بنا إلى بحر الفكر الفلسفي الذي لا طائل وراءه، بينما قبول الشركة والانغماس فيها هو قبولٌ لمحبةٍ غير مشروطةٍ غريبةٍ عن الطبع الإنساني المتغرب عن الله، والتي لا يمكن أن تُكتَشَف بالجدال، بل باتباع المعلم الذي ختم دعوته بحمل الصليب، وبأن التضحية بالذات هي الدرس الأول لهذا العيد.

لقد تجسد الله لكي يعلم الإنسان حقيقة الحياة الإلهية التي لا قهر فيها ولا اغتصاب، بل تضحيةً وسلوكًا بمحبة، ولكي يضربَ بعنفٍ –من خلال مقاييس التجسد– كل التصورات الكاذبة عن الله، وما ينتمي منها إلى الوثنية بحكم قرابتها اللصيقة بالوعي والحس الإنساني.

يجب أن نهنئ أنفسنا بأن عيد تجسد ابن الله هو دعوةٌ لاكتشاف حقيقة الله عندما يصبح إنسانًا.

في السنوات الأخيرة دار عندنا جدلٌ عقيم عن تألُّه الإنسان، وأذكر أثناء دراستي بجامعة كمبردج أنني قرأتُ عبارةً للقديس غريغوريوس النزينزي، يقول: "لكي تكلِّم الله يجب أن تكون إلهًا". وعندما استعظمتُ القول، قال لي أستاذ اللغة اليونانية والذي وضع قاموس مصطلحات الآباء إن العبارة صحيحة لأن الرب يسوع قال في تعليمه الإلهي: كونوا رحماء كما أن أباكم الذي في السموات هو رحيم، وأن من لا يعرف الرحمة الإلهية لا يستطيع أن يعرف الله.

عند هذه النقطة بالذات يصبح الإيمان بالإله المتجسد اختبارًا لعلاقة، وليس بحثًا فلسفيًّا، لأن التجسد ألغى البداية والنهاية وجعل كلاهما شيئًا واحدًا لا خلاف عليه، فالمسيح الرب هو بداية الخلقة الجديدة التي لا نهاية لها، أمَّا النهاية فهي الهدف، والهدف لم يعَدُ بعد موضوعًا زمانيًّا يُحسبُ بالكم، بل يُدرك نوعيًّا.

ونحن لا نستطيع أن نقول إلَّا إن البداية والنهاية هي الألف والياء، أي يسوع، فهو الإنسان المولود في الزمان والمكان، الذي حلَّ إشكالية البداية والنهاية بأن جعل منهما هدفًا واحدًا هو تجديد الإنسان لكي يكون مثل ابن الله، دون أن يعني هذا المطابقةَ الكاملةَ بين ابن الله الوحيد وبين البشر، لأن عكس ذلك يعني العودة إلى نوعٍ من وثنيةٍ جديدةٍ لا ترقى بالإنسان إلى مجد ابن الله.

كلُ عامٍ وأنتم بخير. أعاد الله عليكم هذا العيد الذي حقق فيه ابن الله أهداف خلق الإنسان وتجديده ليكون على صورة الله مرةً أخرى، بالخير.

أعاد الله هذا العيد على مصر الوطن العزيز، وعلى الكنيسة جمعاء بالخير.

نقدم تهنئةً قلبيةً لقداسة البابا تواضروس الثاني، وللآباء المطارنة والكهنة ولشعبنا العظيم ولكل الذين يتألمون من أجل الإنجيل الذي هو يسوع المسيح ابن الله الكلمة المتجسد، الذي جعل البداية والنهاية واحدة فيه هو.

+ + +